الحكم الأخلاقي في التاريخ عند الجاحظ
دراسة تحليلية في القيمة التاريخية لكتب الأدب العربي

د. سعد كاظم عبد الجنابي
مدير مركز الفرات الأوسط للدراسات والتوثيق
جامعة القادسية

خلاصة :

تهدف هذه الدراسة الى مناقشة احدى المشكلات المهة المتعلقة بفلسفة التاريخ،ألا وهي مشكلة امكانية اطلاق احكام تاريخية على الشخصيات والمؤسسات والحوادث التاريخية،فهل يجوز للمؤرخ ان يحكم على هذا الرجل من رجال التاريخ بأنه كان فاضلاً والآخر شريراً،او يصف هذه المؤسسة بأنها جاءت بالخير والاخرى كانت وبالاً على الناس،او يرى هذا الحدث كانت نتائجه حسنة والآخر لم يجلب سوى الشقاء ؟ام يكتفي فقط بوصف الاعمال التي قام بها الانسان بالماضي.

هذه المسألة لها تاريخ طويل.ففي مرحلة نشأة التاريخ بوصفه بحثاً علمياً عند اليونان لا نلاحظ انها انخرطت في قضايا الاحكام الأخلاقية،ولكن النزعة الى اصدار مثل هذه الاحكام بدأت عند المؤرخين الرومان وسيطرت بشكل عام على الكتابات التاريخية في العصور التالية ، حتى ظهور ما يسمى بـ : التاريخ العلمي في النصف الاول من القرن التاسع عشر،حيث تبلورت بوصفها مشكلة محددة اشترك في مناقشتها منذ ذلك الحين عدد كبير من الفلاسفة والمؤرخين،ففريق اجاز للمؤرخ اصدار الاحكام الاخلاقية بحكم الواجب او بحكم طبيعة مادة بحثه،وفريق انكر عليه ذلك ؛ لان ذلك خروج عن مهمته الجوهرية.ولكل من الفريقين حججه التي تختلف درجتها قوة وضعفاً[١].

اذن فمسألة الحكم الاخلاقي لم تصل الى المقدمة عند الكتاب الغربيين الا مع نشأة المذهب التاريخي في القرن التاسع عشر،فقد تجنب المؤرخ الالماني ليوبولد فون رانكة وتلاميذه الحكم الاخلاقي ، وقالوا انهم كرسوا انفسهم لمهمة التسجيل البسيط لما حدث مع ادنى حد من التعليق،وبدون التفاخر بالموافقة اوعدم الموافقة.الا انه كان هناك رد فعل ضد هذا المبدأ الصارم فيما بعد في هذا القرن وكانت هناك عودة الى اصدار الاحكام على التاريخ[٢].

ان المتمعن في التراث التاريخي والادبي الاسلامي يجد بأن بعض المؤرخين المسلمين لم يكتفوا بالنقل البسيط للاحداث ، فقد امتازت الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين عن الكتابات التاريخية الاخرى بميزات عديدة ، جعلت التاريخ العربي الاسلامي اصلاً مستقلاً عن غيره ،فقد اتبع المؤرخون العرب في كتابة التاريخ منهجاً فريداً بين المناهج التي عرفها العالم في العصر الوسيط ،فوضعوا الكثير من المبادئ التي التزمها واخذ بها المنهج العلمي الحديث في كتابة التاريخ ، والذي يقوم على جمع المادة التاريخية وفحصها وتحري اصولها ونقدها وعرضها عرضاً علمياً مترابطاً يتضمن تحليلاً للاحداث ،وربط الاسباب والنتائج.الا ان المؤرخين المسلمين كانوا يتجنبون اطلاق احكام اخلاقية على الشخصيات والمؤسسات عند تعرضهم وتتبعهم لسير التاريخ،باستثناء بعض المؤرخين الذين اصدروا احكاماً اخلاقية بسيطة على بعض الشخصيات والحوادث ، امثال : المسعودي وابن حزم وابن خلدون [٣]، الا ان هذه الاحكام جاءت بسيطة ومحدودة مبنية على ميول المؤرخ واتجاهاته الدينية والسياسية.

عصر الجاحظ :

اذا اردنا الكلام عن عصر الجاحظ فلا نستطيع ان نصور هذا العصر باحسن من تصوير الجاحظ له حين ذكر مانصه[٤]:"وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ،على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ،كما ان من بعدنا يجد من العبر اكثر مما وجدنا ،فما ينتظر العالم باظهار ماعنده؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟وقد امكن القول ،وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ،وهبت رياح العلماء ، وكسد العي والجهل ،وقامت سوق العلم والبيان".

اذن فعصر الجاحظ كان عصر حرية الفكر ، ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا ان نشير الى ان عصر الجاحظ قد تميز بانه كان عصر المناظرات بين الفرق الدينية المختلفة ، وقد مثل الجاحظ هذه الحرية احسن تمثيل سواء اكان في علمه،ام في دينه ام كان في ادبه،فقد استعمل حرية عقله في تحقيقه العلمي[٥]،وظهرت اثار هذا الاستعمال على نقده وعلى شكه وعلى حججه ، فكانت طريقته في العلم : طريقة((باكون)) و((ديكارت)) كما سيتبين من كلامنا عن احكامه الاخلاقية.

بقي علينا الكلام عن الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ ، اي ناحية (استفاضة العلم) فقد كان هذا العصر عصر الانقلاب الفكري .وقد اشار الجاحظ نفسه الى هذه القضية فقد كان يرقب كل حركة من حركات عصره ،فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ايامه،فكأنه صورة ناطقة عن احوال عصره ،فقد اشار الى التجديد في مقدمة كتاب الحيوان قائلاً[٦]:"وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حِكَم اليونانية ،وحوّلت آداب الفرس،...وقد نقلت هذه الكتب من امة الى امة ،ومن قرن الى قرن ،ومن لسان الى لسان ،حتى انتهت الينا ،وكنا آخر من ورثها ونظر فيها".

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ ،وقد كان الجاحظ نفسه مركزاً من مراكز هذا التفاعل .فثقافته الموسوعية قد احاطت بعوامل الائتلاف والاختلاف بين حضارات عصره واستطاعت ان تحدد الهوية الاصيلة للشخصية الثقافية العربية[٧]،فما اكثر الافكار الحديثة التي دخلت في ميزاننا الفكري ، فاستلزمت صوراً حديثة تمثلها العقول ،وتقربها من الاذهان .وقد ظهرت آثار هذا الانقلاب الفكري على ثقافة الجاحظ فخاض في ابواب شتى ،في الاجتماع والاخلاق والتاريخ.

ان المتتبع لمؤلفات الجاحظ يجد بانه قد اتبع منهجاً خاصاً في معالجته للحوادث التاريخية،رغم ان الجاحظ عرف اديباً من الطراز الاول ولم اجد بين المؤرخين من عَدّ الجاحظ مؤرخاً،بل ان قلة من المؤرخين استفادوا من كتبه ورسائله في كتاباتهم عن القرون الثلاثة الاولى في الاسلام .وقال د. فاروق عمر[٨] مانصه:"والواقع لم يكن الجاحظ مؤرخاً بالمعنى المتعارف عليه بل انه سجل في العديد من كتبه ورسائله ملاحظات ذكية وقيمة عن احداث عصره او تلك التي سبقت عصره.وهذه الملاحظات فيها دلالات تاريخية ذات اهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ المتمعن...".

ولقد ركز الجاحظ في كتاباته على موضوعية المؤرخ ،فهو يرى ان المؤرخ يكون موضوعياً في معالجته لوجهات النظر المتباينة فيقول[٩]:"واعلم ان واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ولأهل النظر مألفاً حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ...".

ورغم ان الجاحظ لم يعتمد هذا المنهج دائماً في كتاباته بل دافع عن وجهة النظر التي يعتقد بها.فالمعروف عن الجاحظ انه كان معتزلياً[١٠] في آرائه العقائدية وعباسياً في ميوله السياسية ، فقد دافع عن سياسة الخلفاء العباسيين كما دافع عن نهج المعتزلة الفكري والسياسي ، فقد بلغت المعتزلة غاية مجدها في ظل الخلافة العباسية ،فلا عجب ان يقف شيوخها موقف المؤيد لهذه الخلافة المحتج لها أمام خصومها ، والجاحظ لا يخالف في هذا الموقف عامة شيوخ المعتزلة في رأيهم بالخلافة العباسية ، ولقد حفلت كتبه ورسائله باحتجاجاته للخلافة العباسية وموقفه[١١]، الا ان المتمعن في كتاباته يجد بانه كان في اغلب الاحيان موضوعياً في سرد الحقائق التاريخية،كما انه اصدر أحكاما اخلاقية اكثر من اي مؤرخ آخر اعطت لمادته التاريخية اهمية قصوى ، ونقلت كتاباته من الحيز التقليدي القائم على نقل الروايات كما هي الى نقد وتجريح الحدث التاريخي واطلاق الاحكام الاخلاقية عليه.

وقد يكون لمذهب المعتزلة الذي تبناه الجاحظ اثر كبير في طبع كتاباته بهذا الطابع التحليلي ، فالمعتزلة من الفرق التي تعول على العقل بشكل كامل في قضاياها الفقهية ، ولا ريب ان هذا المنهج انسحب على طروحات الجاحظ التاريخية[١٢].فالجاحظ يعتمد العقل في ابحاثه والشك هو سبيله للحقيقة فكيف لا وهو القائل[١٣]:" اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة لها". ويتابع فيقول :"لايشفيني الا المعاينة ...ولعمري ان العيون لتخطئ ،وان الحواس لتكذب ،وما الحكم القاطع الا للذهن،والاستبانة الصحيحة الا للعقل".ويقول بعبارة اوضح:"فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل وللامور حكمان :حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقل".

ففي كتابه(رسائل الجاحظ) الذي يعد من بين اهم مؤلفاته ، وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل كتبها لوزراء وقادة بني العباس ، فكل رسالة هي كتاب بعينه يبحث في موضوع واحد بدراسة معمقة مستفيضة .وفي الرسالة الحادية عشر(في النابتة) التي كتبها الى ابي الوليد محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، نتحسس منهجاً خاصاً في معالجة الحدث التاريخي يبدأ بالتحليل الدقيق وينتهي باطلاق حكم تاريخي اخلاقي. فبعد ان تناول الجاحظ عهد الراشدين بالاطراء انتقل للحديث عن دولة بني امية قائلاً[١٤]:"فعندما استوى معاوية على الملك ،واستبد على بقية الشورى ،وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه : عام الجماعة ،وما كان عام الجماعة،بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ،والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكاً كسروياً ،والخلافة غصباً قيصرياً ...".

وفي هذا النص حكم واضح على الخليفة والمؤسسة في الوقت نفسه ،فقد وصف الجاحظ معاوية بالاستبداد وان ملكه ملكاً كسروياً وخلافته غصباً قيصرياً،كما انه اصدر حكماً تاريخياً غاية في الاهمية عن واحد من اهم احداث التاريخ الاسلامي ، وهو(عام الجماعة) بحسب ما وصفته اغلب المصادر التاريخية والادبية ، فقال انه (عام فرقة).وبالتالي فانه خلق نظرية جديدة قائمة على مجموعة من الاسباب التاريخية ، من الممكن ان تكون مدخلاً جديداً لدراسة التاريخ الاموي.

ثم انتقل الجاحظ ليصف افعال معاوية ويضع في ضوئها احكاماً ، وكأنه قاضي في محكمة التاريخ فقال مانصه : [١٥]"ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكينا ،وعلى منازل مارتبنا ، حتى رد قضية رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] رداً مكشوفاً ،وجحد بحكمه جحداً ظاهراً ،في ولد الفراش ومايجب للعاهر ،مع اجماع الامة ان سمية لم تكن لابي سفيان فراشاً،وانه انما كان بها عاهراً،فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار".ثم استطرد قائلا: "وليس قتل حجر بن عدي،واطعام عمرو بن العاص خراج مصر ،وبيعة يزيد الخليع ،والاستئثار بالفيء ،واختيار الولاة على الهوى ،وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة ،من جنس جحد الاحكام المنصوصة ...".ثم ختم كلامه بالقول[١٦]:" فهذه اول كفرة كانت في الاسلام".

وفي رسالته عن القيان اظهر الجاحظ لنا صورة اخرى من صور الخلفاء الامويين ، تلك الصورة الماجنة فقال مانصه[١٧]:"وكان معاوية يؤتى بالجارية فيجردها ثيابها بحضرة جلسائه،ويضع القضيب على ركبها ،ثم يقول:انه لمتاع ان وجد متاعاً،ثم يقول لصعصعة بن صوحان :خذها لبعض ولدك فانها لاتحل ليزيد بعد ان فعلت بها مافعلت".ورغم ان هذه الظاهرة قد شاعت في العصر العباسي الا ان الجاحظ ياخذ امثلته عنها من العصر الاموي،مما جعل فوزي ينتقده قائلاً[١٨]:"وحين تكلم الجاحظ عن ظاهرة التسري بالجواري والغلمان ... تلك الظاهرة التي شاعت في العصر العباسي لم يترك هذه الظاهرة تمر دون ان يذكر الامثلة المختارة من العصر الاموي لا العباسي".وهذا الكلام محاولة من فوزي لاظهار ميول الجاحظ السياسية العباسية وتجنبه نقدهم في مواضع كثيرة.الا ان المتمعن في مؤلفات الجاحظ يجد بأنه تناول في موضع آخر ظاهرة الجواري عند الخلفاء العباسيين ولم يخفِ هذا الامر كما صور فوزي ، الا ان الجاحظ عند حديثه عن العباسيين يبدو اقل حدة واكثر تعاطفاً.ففي كتابه المحاسن والاضداد ذكر امثلة كثيرة عن هذه الظاهرة في المجتمع العباسي منها مانصه[١٩]:"حدثنا يحيى بن الحسن عن محمد بن هشام قاضي مكة ،قال:كانت الخيزران لرجل من ثقيف ،فقالت لمولاها

الثقفي:اني رأيت رؤيا ،قال:وما هي ،قالت رأيت كأن القمر خرج من قلبي ، وكأن الشمس خرجت من دبري ،قال لها:لست من جواري مثلي، فقدم بها الى مكة ، فباعها في الرقيق فاشتريت وعرضت على المنصور فقال: من اين انت، قالت:المولد مكة والمنشأ بجرش.قال: فلك احد ، قالت مالي احد الا الله،وماولدت امي غيري،قال:ياغلام اذهب بها الى المهدي وقل له تصلح للولد ،فأتي بها المهدي ،فوقعت منه كل موقع ،فلما ولدت موسى وهارون ،قالت :ان لي اهل بيت بجرش ،قال من لك ،قالت :لي اختان اسمهما اسماء وسلسل ،ولي ام واخوان ،فكتب فأتي بهم ،فتزوج جعفربن المنصور سلسل ،فولدت منه زبيدة ،واسمها سكينة ،تزوجها الرشيد ،وبقيت اسماء بكراً،فقال المهدي للخيزران :قد ولدت رجلين ،وقد بايعت لهما ،وما احب ان تبقي أمَة ،واحب ان اعتقك ،وتخرجين الى مكة ،وتقدمين فأتزوجك .قالت :الصواب رأيت فأعتقها وخرجت الى مكة،فتزوج المهدي اختها اسماء ،ومهرها الف الف درهم،فلما احس بقدوم الخيزران استقبلها فقالت :ما خبر اسماء،وكم وهبت لها ،قال :من اسماء،قالت امرأتك،قال:اما اذا علمت،فقد مهرتها الف الف درهم،ووهبت لها الف درهم ،ثم تزوج الخيزران".

في هذا النص دليل كافٍ على ان الجاحظ لم يستثن العباسيين من النقد ،وفي النص المتقدم دليل قاطع على ان الجاحظ لم يخبئ مثالب العباسيين وانه برز اعمالهم اسوة بالامويين.

وعندما انتقل الجاحظ للحديث عن يزيد استعرض اعماله بشكل مقتضب بدءاً من الحَرَة ثم ضرب الكعبة بالمنجنيق وقتل الحسين(ع) وسبي ذراري رسول الله.ثم ختم حديثه بالقول:[٢٠]"فإن كان على ما وصفنا لايعدو الفسق والضلال ،وذلك ادنى منازله ،فالفاسق ملعون ،ومن نهى عن لعن الملعون فملعون".

استطرد الجاحظ في وصف احوال الناس في ظل المؤسسة الاموية قائلاً:[٢١] "ثم مازال الناس يتسكعون مرة ويداهنونه مرة ،ويقاربوهم مرة ويشاركونهم مرة ،الا بقية ممن عصى الله ذكره،حتى قام عبد الملك بن مروان ،وابنه الوليد ،وعاملهما الحجاج بن يوسف،ومولاه يزيد بن مسلم ،فأعادوا على البيت بالهدم ،وعلى حرم المدينة بالغزو،فهدموا الكعبة ،واستباحوا الحرمة ،وحولوا قبلة واسط ،وأخروا صلاة الجمعة الى مغيربان الشمس.فان قال رجل لاحد منهم :اتق الله فقد اخرت الصلاة عن وقتها قتله على هذا القول جهاراً...ومما يدل على ان القوم لم يكونوا الا في طريق التمرد على الله عز وجل،والاستخفاف بالدين ،والتهاون بالمسلمين ،والابتذال لاهل الحق ،اكل امرائهم الطعام ،وشربهم الشراب على منابرهم ايام جمعهم وجموعهم .فعل ذلك حبيش بن دلجة،وطارق مولى عثمان،والحجاج بن يوسف وغيرهم...".

وفي الرسالة التاسعة والعشرون من كتابه : مقالة في الزيدية والرافضة ، نجد صورة اجلى من الصورة الاولى للحكم الاخلاقي المبني على مجموعة من الروايات التاريخية ،فقد استعرض الجاحظ عدداً من المسائل التاريخية على شكل اسئلة وهو منهج تفرد به الجاحظ دون غيره من الاخباريين، فقال مثلاً ما نصه[٢٢]:"انا سألنا العلماء والفقهاء واصحاب الاخبار وحمال الاثارعن اول الناس اسلاماً،فقال فريق منهم علي،وقال قوم زيد بن حارثة ،وقال قوم:خباب ولم نجد قول كل واحد منهم من هذه الفرق قاطعاً لعذر صاحبه ... وكذلك اذا سالناهم عن الذابين عن الاسلام بمهجهم .والماشين الى الاقران بسيوفهم وجدناهم مختلفين...". وهنا ذكر الجاحظ حكمه الخاص ، فقال:"على ان لعلي من قتل الاقران ماليس لهم".ثم قال مانصه[٢٣]:"واذا سالناهم عن الفقهاء والعلماء ،رأيناهم يعدون علياً كان افقههم ،وعمر،وعبد الله بن مسعود،وزيد بن ثابت،وابي بن كعب...".فأوضح حكمه قائلاً[٢٤]:"على ان علي كان افقههم ؛لانه كان يُسأل ولا يسأل ،ويُفتي ولا يستفتي ويحتاج اليه ولايحتاج اليهم...".ثم قال مانصه :"وان سألناهم عن اهل الزهادة والتقشف والمعروفين برفض الدنيا وخلعها،والزهد فيها،قالوا:علي وابو الدرداء ،ومعاذ،وابو ذر،وعمار وبلال ،وعثمان بن مضعون ". فأوضح حكمه قائلاً :"على ان علياً ازهدهم ؛لانه شاركهم في خشونة الملبس وخشونة المأكل ،والرضا باليسير ،والتبلغ بالحقير ،وظلف النفس،ومخالفة الشهوات،وفارقهم بأن ملك بيوت الاموال ورقاب العرب والعجم ،فكان ينضح ببيت المال في كل جمعة

ويصلي فيه ركعتين...فلما رأينا هذه الامور مجتمعة فيه ،متفرقة في غيره من اصحاب هذه المراتب وهذه الطبقات ،علمنا انه افضلهم...".

وفي كتابه البخلاء انتقد الجاحظ الامويين ووصفهم بالبخل من خلال مجموعة من الروايات ،فقال ما نصه[٢٥]:"تناول أعرابي من بين يدي سليمان بن عبد الملك دجاجة فقال له:يكفيك ما بين يديك وما يليك ،قال الاعرابي :ومنها شيء حمى؟ قال :فخذها لابورك لك فيها".وفي رواية اخرى قال ما نصه :"كان معاوية تعجبه القبة .وتغدى معه يوم صعصعة بن صوحان فتناولها صعصعة من بين يدي معاوية.قال معاوية :انك لبعيد النجعة ،قال صعصعة :من اجدب انتجع". وفي رواية ثالثة مانصه :"دخل هشام بن عبد الملك حائطاً له فيه فاكهة واشجار وثمار ومعه اصحابه.فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة ،فقال هشام :ياغلام اقلع هذا واغرس مكانه الزيتون ".

والجاحظ في بخلائه يعطي صورة واضحة لشخصية المؤرخ المرنة ؛لانه يصور لنا فئة من فئات المجتمع العباسي تلك التي تقدم المال على كل شيء ، والجاحظ في تصويره لهذه الفئة من الناس تصويراً ساخرا ينفذ الى خوالج النفس البشرية.ان بخلاء الجاحظ ليسوا اشباحاً بل ارواحاً وهم بصريون او بغداديون عاصروه وكانوا من خلطائه،وبالتالي فانه اطلق حكما تاريخيا اخلاقيا على فئة عاصرها ، ثم حوّل تجربته تلك الى قالب منهجي استطاع من خلاله ان يضع احكاما على الامويين وغيرهم كمؤرخ[٢٦].

وقد وقف د. فوزي موقفا خاصا من احكام الجاحظ الاخلاقية التي اطلقها على الامويين ، قائلاً[٢٧]:"وأخيراً لابد من القول بان الجاحظ ،بصورة عامة ،فشل في معالجته التاريخ الاموي ،وهذا الفشل يعود في نظرنا الى ان اتخاذ موقف صحيح ازاء احداث التاريخ الاموي يستدعي موقفا نظرياً صحيحا وخلفية عقائدية وسياسية لا تتعارض مع النهج الاموي او على الاقل تقف موقفاً منه وهذا ما لم يتوفر عند الجاحظ بسبب تعارض عقيدته مع الامويين .والواقع ان الجاحظ لو اقتصر على مهاجمة التطرف الاموي المتمثل بـ : النابتة لكان في وضع اقوى ولما وقع في تناقض ولكنه هاجم الامويين ككل فوجد نفسه امام مهمة شاقة اذ كيف يمكن التكلم سلبياً عن فترة شهدت منجزات تضاهي بل تفوق احياناً منجزات العباسيين في عصر قوتهم وازدهارهم .وكيف يمكن الجمع بين حب العرب والعروبة وبين التعرض للامويين في آن واحد".

وكما استغرب د. فوزي من منهج الجاحظ فنحن نستغرب من طرح د.فوزي ، فلو فرضنا جدلاً ان للامويين منجزات حضارية تفوق ما انجزه العباسيون فعلاً ، فهل هذا يعني ان نتجاوز اخطائهم التي ارتكبوها خلال مدة حكمهم والتي امتلأت بها بطون الكتب وتحدث بها كل ذي قلم.فالجاحظ لم يغفل منجزات الامويين التي حاول د. فوزي ان يجعلها تفوق منجزات العباسيين ، رغم ان هذا الكلام غير دقيق فالعباسيون حكموا مدة طويلة حققوا فيها منجزات كبيرة على الصعيد الحضاري لا يمكن إغفالها.فالجاحظ مدح الأمويين في مواضع شتى وانتقد العباسيين ايضاً،قائلاً مانصه[٢٨]:"وقد يجب علينا ان نذكر بعض ما انتهى الينا من كلام خلفائنا من ولد العباس ،ولو ان دولتهم عجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية في أجناد شامية والعرب اوعى لما تسمع واحفظ لمآثرها ولها الاشعار التي تقيد عليها مآثرها وتخلد لها محاسنها وجرت من ذلك في اسلامها على مثل عادتها في جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لايُحصى".وفي هذا النص مديح واضح للامويين واتهام اوضح للعباسيين. والجاحظ معجب بخطب الامويين ووصاياهم وآرائهم ويشير اليها في اكثر من موضع[٢٩].وفاخر الجاحظ بالفتوحات الكبيرة التي تحققت ايام الامويين على يد محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي وسماها : الفتوحات العظام[٣٠].وعندما تحدث الجاحظ عن اخلاق الملوك وسلوكهم مع الناس قال مانصه[٣١]:"ثم لم يكن ذلك بعد في اخلاق الملوك من الاعاجم والعرب حتى ملك يزيد بن عبد الملك ،فسوى بين الطبقة العليا والسفلى ،وافسد المراتب ،وغلب عليه اللهو ،واستخف بآيين المملكة ،واذِن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه والرد عليه".وبالتالي فان الجاحظ قد

استثنى من هذا الكلام الخلفاء الذين سبقوا يزيد. كما اشار الجاحظ الى حزم مروان بن محمد آخرخلفاء الامويين وصلابته في احرج ايامه قبل سقوط دولته .

وفي الوقت نفسه فان الجاحظ انتقد العباسيين ايضاً وفي مواضع كثيرة ، فهو يحمل العباسيين مسؤولية طمس آثار الامويين فقال مانصه:"هدم اصحابنا بناء مدن الشامات" .وفي موضع آخر تحدث الجاحظ عن العباسيين بنفس اللغة التي تحدث بها عن الامويين حين ذكر احوال الخلفاء في الشرب ، فقد مدح الأمويين قائلاً[٣٢]:" اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ،فكان بينهم وبين الندماء ستارة".وقال عن العباسيين في احوالهم مع الندماء ما نصه:"وكان المهدي في اول مرة يحتجب عن الندماء ،متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ،ثم ظهر لهم .فاشار عليه ابو عون بأن يحتجب عنهم ،فقال:اليك عني ياجاهل انما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنو ممن سرني...".كما قال مانصه[٣٣]:"وكان الهادي شكس الاخلاق ،صعب المرام ،قليل الاغضاء ،سيء الظن...".كما انتقد الامويين والعباسيين على حد سواء دون التحيز الى جهة حين تحدث عن(سيرة الملوك في الشرب) فقال[٣٤]:"وكان ملوك الاسلام من يدمن على شربه ،يزيد بن معاوية.وكان لايمسي الا سكران،ولايصبح الا مخموراً،وكان عبد الملك بن مروان يسكر قي كل شهر مرة حتى لايعقل في السماء هو او في الارض...وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً...وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال،ليلة،ولم يشرب عمر بن عبد العزيز منذ افضت اليه الخلافة...وكان ابو العباس السفاح يشرب عشية الثلاثاء وحدها...وكان المهدي والهادي يشربان يوماً ويدعان يوماً،وكان الرشيد يشرب ظاهراً...وكان المأمون في اول ايامه يشرب الثلاثاء والجمعة ثم ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في سنة خمس عشر ومائتين الى ان توفي...".ثم ان الجاحظ اطلق احكاماً اشد دقة عندما ذكر امكانيات الخلفاء السياسية ، فقال مانصه[٣٥]":فإن عمر كان علمه بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد...ثم اقتفى معاوية فعله،وطلب اثره،فانتظم له امره،وطالت مدته،وكذا كان زياد بن ابيه يحتذي فعل معاوية ،كاحتذاء معاوية فعل عمر...وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان ،والحجاج بن يوسف،ثم لم يكن بعد هؤلاء احد في السياسة حتى ملك المنصور".والمدقق في النص يجد ان الجاحظ قد امتدح الامويين وكان معجباً بسياستهم ،في الوقت الذي تجاوز فيه مدح سياسة ابو العباس السفاح اول الخلفاء العباسيين وبدأ بابي جعفر المنصور.

مما تقدم يتبين لنا الجاحظ لم يتوانَ عن اطلاق الاحكام الاخلاقية حتى عن العباسيين،كما ان الجاحظ لم يتخل عن الاسس النظرية التي وضعها نصب عينيه في كتاباته ،كما انه لم يتخل عن حياديته كما ذكر د. فوزي بل على العكس تماما كان الجاحظ حياديا بما يكفي لمؤرخ عاش في عصر العباسيين.هذا من جهة ومن جهة اخرى فأن الجاحظ الذي توفي سنة ٢٥٥هـ لم يدرك فترة طويلة من تاريخ العباسيين ،في حين انه كان ينظر الى التاريخ الاموي من فوق ، وبالتالي فان تصوره عن التاريخ الاموي كلي مكنه من التحرك بفكره في تفاصيله بمرونة اكبر ؛ لذلك استطاع ان يضع احكاماً دقيقة.فالجاحظ كان معتزلياً وبالتالي فانه يحكم عقله ومنطقه ولايقبل الروايات الشاذة.ولو قدر للجاحظ – بتقديري – ان يعيش الى اواخر العصر العباسي ، لانتقد العباسيين بشكل ادق رغم انه لم يترك موضعا من مواضع الفترة العباسية التي عاشها الا وترك حكماً اخلاقياً ناضجاً.اما فكرة ان العباسيين كانوا يخشون دائماً ردة فعل انقلابية يقوم بها الامويون ، وانهم كانوا يحاولون دائماً ان يخفضوا من شأنهم وتأليب الناس عليهم ، فحمل دعاتهم والجاحظ في الطليعة حملة شديدة عليهم[٣٦]،فانها حجة ضعيفة لايمكن ان نجعلها معياراً لتقييم الجاحظ.

اما عن قضية تصنيف الجاحظ كمؤرخ فهذه المسألة حساسة جداً تتعلق بادراكنا لمهمة المؤرخ اولاً،فاذا كان المؤرخ هو الشخص الذي تنتهي مهمته بجمع الروايات وتصنيفها فإن الجاحظ وفق هذا التعريف لم يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق رغم ان كتبه مليئة بالنصوص التاريخية .اما اذا كان المؤرخ هو القاضي في محكمة التاريخ فأن الجاحظ كان مؤرخاً بحق ؛ لان في كتاباته بُعداً آخر غير البُعدين

الزماني والمكاني ،وهو بُعد قائم على الفرز والتحقيق تتعدى فيه مهمة المؤرخ الجمع والترتيب ، الى مهمة اعمق تقوم على تجريح الخبر وتشذيبه.فالتاريخ يزداد جلاءاً حين ينتقل المؤرخ فيه بالتدريج من خواصه الظاهرية الى الخواص الاقل ظهوراً،والاشد عمقاً[٣٧]،فالجاحظ باحكامه كان من المؤرخين الذين رفضوا وصف ظاهر الاحداث وهم قلة .والذين لايرون الجاحظ مؤرخاً هم انصار المدرسة التقليدية في كتابة التاريخ ، الذين اصطدموا بمؤلفات الجاحظ المليئة بالتحليل والاستقراء والاحكام الاخلاقية فلم يتحسسوا فيها تاريخا.فمؤلفات الجاحظ تضفي على التأريخ أبعاداً فلسفية يمكن من خلالها فهم التاريخ الاسلامي بصورة أعمق.

فاذا كان التاريخ بعث الماضي باكمله حياً ملوناً وموحيا يعيد الذهن الى الزمن الغابر ،فلا شك ان لشهادة الجاحظ شأنها التاريخي لاسيما بالنسبة لمؤرخي الاسلام .وقد افسح المستشرق سوفاجيه لابي عثمان مكاناً محترماً بين المؤرخين وبرر ذلك بقوله : " ان دقة ملاحظاته وحدة اوصافه يجعلانه شاهداً محترم الرأي على مجتمع عصره "[٣٨].

والواقع ان الجاحظ شاهد محترم الرأي حقاً ، اذا سلمنا بان كل هذا الاحترام يقوم على دعامتي العلم والاخلاص ، ولابد هنا من التمييز بين قسمين من نتاجه :القسم الموضوعي الذي يسرد فيه الوقائع التي شهدها ،والقسم الثاني الذي يغلب عليه النقد .فالجاحظ كشاهد لاتنقصه الكفاءة والموضوعية فقد مكنته اوضاعه الخاصة من ان يرى ويدون ويستخلص ، وكان له ذوقه السليم مما جنّبه الخطأ في الغالب.

وقد عد مارغوليوث الجاحظ مؤرخاً وقال يعتبر الطبري وسلفه الجاحظ البصري وخلفه ابن حزم القرطبي اكثر المؤلفين العرب تأليفاً "[٣٩]،كما عده في موضع آخر من بين المؤرخين المتخصصين الذين اهتموا بتاريخ فئة خاصة من الاشخاص ، حين عالج اشخاصاً اشتهروا بصفة خاصة من خلال كتابه البخلاء[٤٠].

ان منهج الجاحظ - في نهاية المطاف - لايخلو من عوامل ذاتية حاول فيها اما ان يدافع عن رأي خاص به ،واما ان يؤيد موقفاً سياسياً معيناً ، او يحمل على خصوم وافكار معادية فهو في كل هذه الحالات قد لايبين الوقائع كما هي ، بل بالنسبة الى تاويله الخاص وعلى ضوء نزعاته الدينية والسياسية والعاطفية،الا اننا لانؤيد ماذهب اليه ابن قتيبة حين نسب الى الجاحظ التقلب في الرأي،فالجاحظ كغيره من المؤرخين لابد وان يتأثر بعصره ويخضع للضغوطات السياسية والدينية المؤثرة فيه.الا ان نتاج الجاحظ التاريخي المبني على النظر الدقيق نحو الامر الواحد من وجوهه الكثيرة ، واطلاقه احكاما تاريخية دقيقة يمحي الاثار السلبية التي حاول بعض الباحثين الصاقها به الى درجة ان منهم من نفى عنه صفة المؤرخ واكتفى له بصفة الاديب[٤١].فالتصاق الجاحظ بالخلافة العباسية اتاح له مايعرف بـ: الترف العلمي الذي وظفه للخلق والابداع[٤٢].

والمرجح ان الجاحظ لم يبدع في فن كابداعه في التاريخ ، لانه استمد منهجه الموضوعي من قابليتين:

الاولى : قابلية المتكلم الذي يفلسف كل شيء ويستخدم مبادئ العقل والمنطق طريقاً للوصول الى الحقيقة الموضوعية.

الثانية : قابلية الاديب الذي لا تشغله الحقيقة الموضوعية عن النظر الى البعد الفني في موضوعه ،وهكذا ينتقل الموضوع على يديه ،من جفاف العلم والمنطق إلى طرافة الفن والادب .

نتائج الدراسة:

- ان المؤرخين المسلمين سبقوا المؤرخين الغربيين في قضية اصدار الاحكام الاخلاقية على الاشخاص والمؤسسات،فهناك محاولات عديدة لبعض مؤرخي التاريخ الاسلامي لاصدار احكام تاريخية ، مما يعطي للمادة التاريخية الاسلامية اهمية اكبر.

- تُعد كتب الادب العربي مصدراً مهماً لايمكن الاستغناء عنه بالنسبة للمؤرخين ، وبالتالي فان لكتب الادب العربي قيمة تاريخية كبرى لايمكن اغفالها بالنسبة لكل المشتغلين بالدراسات التاريخية.
- تُعد مادة الجاحظ تاريخا يحمل في طياته ابعاداً فلسفية مهمة فالجاحظ لايكتفي بنقل الخبر وانما يقوم بتجريحه ؛ لاكسابه صفة الموضوعية التي يتحول معها التاريخ الى طبيعته القائمة ؛ على التاثير البناء والاستمرارية.
- على الرغم من ان الجاحظ لايُصنف ضمن المؤرخين ، الا ان منهجه في الكتابة التاريخية منهجا متميزاً ، يؤكد لنا مدى التقارب بين مناهج الادباء والمؤرخين في العصور الاسلامية.
- ان ميول الجاحظ السياسية والمذهبية لم تؤثر بدرجة مبالغ فيها على منهجه،فالتاثير الكبير للميول السياسية والدينية يفسد المادة التاريخية ويفقدها قيمتها،ولقد وجدنا الجاحظ موضوعيا بعض الشيء لانه انتقد كل المؤسسات السياسية حتى المؤسسة العباسية التي عاش في كنفها،الا انه اسهب قليلاً في انتقاد الامويين وذلك كما اشرنا في سياق الدراسة ، يرجع الى ان الجاحظ كان ينظر الى التاريخ الاموي من فوق ، مما جعله يستوعب كل مثالب الامويين وينتقدهم ،ولو ان الجاحظ عاش في فترة مابعد سقوط العباسيين ، لانتقدهم بنفس القوة التي انتقد بها الامويين.
- ان اي مادة تاريخية لاتحمل حُكماً أخلاقيا تعد مادة قاصرة لاتعدو ان تكون سجلاً للاحداث ، وبالتالي فهي اقرب للقصة منها الى التاريخ.
- ان مذهب الاعتزال الذي تبناه الجاحظ اعطى مادته التاريخية بُعداً عقلياً ؛ لان نظرية المعرفة عند المعتزلة تستند الى العقل ،والعقل عندهم هو تلك الحاسة اللطيفة والجوهر الذي يميز الانسان عن الحيوان ،وهو النور الذي يُستضاء به ، لذلك اطلقوا للعقل العنان.وهذا الامر انعكس على طريقة كتابة التاريخ عند الجاحظ ، فجاوز حدود النقل الى التجريح وامتلأت مادته بالحكام الاخلاقية .

الهوامش والتعليقات

(١) الشكرجي،الحكم الاخلاقي في التاريخ، ص١٣-١٤.
(2) Commager,The nature and the study of History,pp : 64-65.
(٣) بوفروة،الحكم الاخلاقي عند المؤرخين المسلمين،ص٢.
(٤) الجاحظ،الحيوان،٢٥٥/٢.
(٥) جبري،الجاحظ معلم العقل والادب،٢٥٥/٢.
(٦) الحيوان،٣٨/١.
(٧) فرح،الصراع الفكري عند الجاحظ،٢٦.
(٨) فوزي،الجاحظ مؤرخاً،ص٤١٠.
(٩) الجاحظ،العثمانية،ص٢٨٠.
(١٠) المعتزلة:ذكر الشهرستاني اقسام المعتزلة فقال : " ومنهم الجاحظية وهم اصحاب عمرو بن بحر ابي عثمان الجاحظ،الذي انفرد عن اصحابه من المعتزلة بمسائل منها قوله: ان المعارف كلها ضرورية طباع،وليس شيء من ذلك من افعال العباد،وليس للعبد كسب سوى الارادة.ومنها قوله:في اهل النار انهم لايخلدون فيها عذاباً ،بل يصيرون الى طبيعة النار،وقال ان الخلق كلهم عقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم ،وعارفون بأنهم محتاجون الى النبي ،وهم محجوجون بمعرفتهم ،ثم هم صنفان :عالم بالتوحيد،وجاهل به فالجاهل معذور والعالم محجوج " . الملل والنحل،٨٨/١.
(١١) النجم،الجاحظ،٣٥.
(١٢) الملل والنحل،٨٧/١؛ابو جوهر،الاسماعيليون بين الاعتزال والتشيع،٥٠؛رستم،الفرق والمذاهب الاسلامية،٩٠.
(١٣) الحيوان٢٥٦/٢.
(١٤) رسائل،٨/٢.
(١٥) م،ن،٩/٢.
(١٦) م،ن،١٢/٢.
(١٧) م،ن،١١٩/٢.

(١٨) الجاحظ مؤرخاً،٣٨٨.
(١٩) المحاسن والاضداد٢/٢٦٤.
(٢٠) رسائل،١٣/٢.
(٢١) م،ن،١٤/٢.
(٢٢) م،ن،١٩٢/٢.
(٢٣) م،ن،١٩٩/٢.
(٢٤) م،ن،٢٠٠/٢.
(٢٥) البخلاء،١٥٨.
(٢٦) غريب،الجاحظ،٧٨.
(٢٧) الجاحظ مؤرخاً،٤٢٧.
(٢٨) البيان والتبيين،١٠٠/٥.
(٢٩) نفسه ،١٠٥/٥؛البخلاء،٩٩.
(٣٠) مفاخرة الجواري والغلمان،١١٦؛البيان والتبيين ،٢٩٠/٥.
(٣١) التاج في اخلاق الملوك،٤٣.
(٣٢) م،ن،٤٣-٤٤.
(٣٣) م،ن،٤٥.
(٣٤) البيان والتبيين ،١٣١/٣-١٣٢.
(٣٥) م،ن،١٤٢/٣-١٤٣.
(٣٦) جبر،الجاحظ حياته ادبه فكره،١٢٩.
(٣٧) قنصوة،الموضوعية في العلوم الانسانية،٤٦.
(٣٨) سوفاجيه،مؤرخو الاسلام،١٩.
(٣٩) مرغليوث،دراسات عن المؤرخين العرب،١٤.
(٤٠) م،ن،٢٠.
(٤١) غريب،الجاحظ،٦٠.
(٤٢) ابو النصر،آثار الجاحظ،٨.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

١ - الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب(ت٢٥٥هـ)،
- البخلاء.
- البيان والتبيين،ج٣ ،٥.
- التاج في اخلاق الملوك.
- الحيوان،ج١ ،٢.
- رسائل الجاحظ،ج٢.
- المحاسن والاضداد،ج٢.
- مفاخرة الجواري والغلمان.
- المجموعة الكاملة،دار نوبليس،ط١،(بيروت-٢٠٠٥) المحاسن والاضداد مفاخرة الجواري والغلمان .

٢ - الشهرستاني،ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر ،الملل والنحل،تح:امير علي مهنا وعلي حسن فاعور،دار المعرفة،ط٢،(بيروت-١٩٩٢).

المراجع العربية والمعربة والاجنبية :

٣ - ابو جوهر،محمد امين،الاسماعيليون بين الاعتزال والتشيع،ط٤،(دمشق-٢٠٠٦).
٤ - ابو النصر،عمرو،آثار الجاحظ،دار النجوى،(بيروت-١٩٦٩).

٥ – جبر،جميل،الجاحظ حياته ادبه فكره،دار الكتاب اللبناني،(بيروت-١٩٧٤).
٦ – جبري،شفيق،الجاحظ معلم العقل والادب،دار البشائر،(دمشق-٢٠٠١).
٧- رستم،اسد،الفرق والمذاهب الاسلامية،دار الاوائل،(دمشق-٢٠٠٧).
٨- سوفاجيه،مؤرخو الاسلام،دار الرسالة،(دمشق-١٩٦٦).
٩ – غريب،جورج،الجاحظ(دراسة عامة)،دار الثقافة،(بيروت-١٩٦٧).
١٠ – فرح،الياس،الصراع الفكري عند الجاحظ،دار الجاحظ،(بغداد-١٩٨١).
١١ – قنصوة،صلاح،الموضوعية في العلوم الانسانية،دار التنوير،(بيروت-٢٠٠٧).
١٢ – مارغوليوث،د.س،دراسات عن المؤرخين العرب،ترجمة:حسين نصار،دار الثقافة،(بيروت-د.ت).
13-Commager,The nature and the study of History Merrill Books, Columbus , Ohio, 1966 .

الرسائل الجامعية والدوريات :

١٤ – بوفروة،يسرى يوسف حمد ،الحكم الاخلاقي عند المؤرخين المسلمين،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة قاريونس (ليبيا) ،كلية الاداب،٢٠٠٥.
١٥ – الشكرجي،جعفر حسن،الحكم الاخلاقي في التاريخ،مجلة كلية الاداب والتربية،العدد١٩-٢٠،جامعة قاريونس،بنغازي،١٩٩٥-١٩٩٦ .
١٦ – فوزي،فاروق عمر،الجاحظ مؤرخاً،مجلة كلية الاداب،العدد٢٩،جامعة بغداد،كلية الاداب،١٩٨١.

Abstract

The Muslims of predecessors in the case of the issuance of Western moral judgments on people and institutions, there are several attempts of some Muslim Mwrjoa Altrik the passing of a historical article which gives the historical importance ofIslamic countries.

The Arab literature can be an important source for indispensable for historians and therefore, the Arab literature to the great historical value can not be disregarded for all engaged in historical studies. the Islamic countries.

The article is the history of bigeye carries with it the philosophical dimensions of the task Valjahz Aictvi transfer news, but the Ptjeriha to validate it as a substantive shift to date with the nature of the existing building and the impact on the continuity.

Despite the fact that within the bigeye to define, but the method of writing in a distinct historical approach emphasizes the extent of convergence between the platforms and literary historians in the medieval Islamic world.

The tendencies of political and religious bigeye did not affect the degree of exaggerated approach, the effect of the great political and religious tendencies mar article historical and lose value, and we have found some bigeye objective because he criticized the political institutions so that each institution Abbasiyah in which they lived, he elaborated a little criticism Ummayad and, as we pointed out in the context of the study due to the fact that bigeye was seen over the history of the Umayyad, making it absorb all the disadvantages of Ummayad Intkdhm and, despite the fact that bigeye lived in a period after the fall of the Abbasids to power that same Antkdhm criticized by Ummayad.

Any article to take a historic moral judgment rule is limited to Att to be a record of events and are therefore closer to the story from there to date.

That the doctrine adopted by the retirement bigeye article gave the historical dimension, as the theory of mental knowledge, based on the Isolationists reason, and reason is that they have Alhacp kind and substance, which distinguishes man from animals, a light which Istdhae to have fired the mind of the church. This is reflected in the way of writing the history bigeye Fjaoz limits transport to defame filling article referees moral.